حركة التوحيد والإصلاح

أعمال لا ينقطع أجرها

الدكتور محمد عز الدين توفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له" رواه مسلم.

هذا الحديث الشريف يفيدنا بالحقائق الآتية:

الأولى: أننا سنموت وسنرحل عن هذه الدنيا، فالموت أقرب إلى أحدنا من شراك نعله، وعندما نموت يتوقف عملنا وينقطع.

الثانية: أن الدنيا دار العمل، وأنها فرصة الإنسان لبناء مستقبله بعد الموت بما في ذلك الأنواع الثلاثة من العمل المذكور في الحديث.

الثالثة: أن هناك فئة من الناس يموتون ولا ينقطع عملهم؛ فهم في المقابر مع الموتى لكنهم يختلفون عنهم في استمرار وصول الثواب والأجر إليهم، وذلك لأنهم خلال حياتهم قدموا بين أيديهم أعمالا فهي تدر عليهم الأجر وهم في قبورهم.

الرابعة: أن الأعمال التي سماها هذا الحديث هي أجناس أعمال يدخل تحت كل واحد منها أنواع كثيرة، ولذلك سنفرد كل واحد منها بشيء من الشرح والتوضيح:

العمل الأول : الصدقة الجارية

تختلف الصدقة الجارية عن الصدقة العادية في كونها نافعة في حياة صاحبها وبعد مماته ومن أمثلتها:

بناء المساجد:

وقد تصدرت المساجد قائمة الصدقات الجارية لمكانتها العظيمة في الإسلام، ولمهامها الكثيرة في المجتمع المسلم، فقد أوصل بعض العلماء وظائف المسجد إلى أربعين وظيفة؛ فهي لإقامة الصلوات الخمس، وإقامة الجمعات، وتعليم العلم، وتحفيظ القرآن، والإفتاء والقضاء، والتمريض والعلاج، وجمع الصدقات وتوزيعها وإصلاح ذات البين واستضافة الفقراء والغرباء وغير ذلك.

ولا يعرف المسلمون مرفقا آخر ينهض بمثل ما ينهض به المسجد من الأعمال، لذلك كان أول نوع من الصدقات الجارية وقع عليه التنافس بين المسلمين ما بين مؤسس وممول ومحافظ ومسير ومعمر، وحري بالمسلم أن يجد له مكانا بينهم، وألا يغيب عن هذه الصدقة الجارية ما استطاع إليها سبيلا.

بناء المنازل والبيوت:

وبناء المسلم لداره يدخل في الصدقة الجارية إذا صحت فيه النية، لأن البيت يؤويه ويؤوي أهله، ويستقبل فيه ضيفه وقد يكون مأوى لأنواع من الفقراء والغرباء من الأجانب والأقارب، وتجري في هذا البيت أنواع من الخير، وقد يكون فضاء للدعوة ونشر العلم، وفيه تكون كثير من الصلوات والنوافل، وفيه إطعام الطعام وتربية الأولاد وغير ذلك من المهام التي يضطلع بها المنزل في حياة المسلمين.

فلا يغفل المسلم عن هذا القصد عندما يبني بيته أو يشتريه، فيكون في نفسه أنه صدقة جارية في حياته وبعد مماته ما دام الناس ينتفعون به جيلا بعد جيل.

ولا يخفى أن المنزل كان أول مقرات الدعوة الإسلامية في مكة قبل بناء المسجد في المدينة بعد الهجرة، فقد كان المسلمون يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم فيتعلمون دينهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمفروض أن يكون بيت كل مسلم بيت علم وذكر ودعوة وضيافة وبذلك يكون له صدقة جارية.

فتح مقرات الدعوة:

فهذه المقرات متعددة الاختصاصات وتجري فيها أنواع من الخير، وبعضها يضم مرافق منها، المسجد وقاعة المحاضرات والمكتبة وقاعة الاجتماعات وفصول الدراسة وغيرها. وأما الأنشطة التي تتم في هذه المقرات فهي أنواع من الدعوة والتربية والتكوين، والفئات التي تستفيد منها تشمل الكبار والصغار والرجال والنساء، والمثقفين والأميين والمواطنين والأجانب، فهي بحق من أفضل أنواع الصدقات الجارية لمن فتحها أو ساهم في شرائها وتمويل أعمالها وصيانتها وعمارتها وحمايتها ...

وقد قامت حركة التوحيد والإصلاح بفتح عدد من المقرات بعضها بالشراء، وبعضها بالإيجار ويتنافس أبناؤها في ذلك، والطموح هو أن تصير لها مقرات في كل أنحاء الوطن والدعوة مفتوحة لأبنائها والمتعاطفين معها لتحقيق هذا الطموح ...

تشييد المدارس:

وسواء كانت هذه المدارس على النمط العتيق أو الأصيل أو الحديث، وسواء كانت دارا للقرآن أو دارا للحديث أو

معهدا أو مدرسة أو جامعة، وسواءا كانت تدرس علوم الدين أو علوم الدنيا فإنها في جميع الحالات تسهم في تعليم أبناء المسلمين وإعدادهم للإسهام في بناء وطنهم ...

وقد أنشأ المسلمون المدارس المتنوعة وأكثرها كان إلى جنب المسجد لتكامل عملهما، كما أنشأوا كتاتيب للتعليم الأولي وحفظ القرآن الكريم، ثم لما تطورت أساليب التعليم وتطورت مؤسساته واكب المحسنون هذا التطور، فبنيت المدارس بأشكالها الحديثة وجهزت بأحدث طراز واعتمدت في الإدارة والتسيير آخر ما انتهى إليه علم الإدارة ولم تخرج عن كونها صدقات جارية.

هذه المدارس و الجامعات لا تقوم على جهد رجل واحد، بل تحتاج إلى طاقم كامل ويمكن للمسلم أن يبحث له عن مكان في هذا النوع الرابع من الصدقات الجارية وسيجده إن شاء الله.

بناء المشافي والملاجئ:

وبناء المستشفى الذي يعالج فيه المرضى، وتقدم فيه الاستشارة الطبية والإسعافات الضرورية من الصدقة الجارية ولا شك، وأما بناء المركبات الخيرية التي تؤوي العجزة والمرضى والطلاب و الأيتام والفقراء فمن باب أولى

وقد تنوعت الفئات التي تستفيد من هذه المركبات الخيرية تجمعهم الحاجة إليها، ففيهم المشرد واليتيم والمتخلى عنه وطالب العلم والغريب وغيرهم.

وأحيانا تتولى الدولة إقامة هذه المركبات الخيرية وأحيانا تتولى الجمعيات ذلك، وهي تجربة عالمية، و المسلمون بحمد الله تعالى يعدون هذه المركبات صدقات جارية بالنظر للمنافع التي تحققها للمجتمع والأفواج والأجيال التي تتلقى خدماتها.

حفر الآبار وغرس الأشجار:

ويدخل في هذا الباب شق السواقي ومد الجداول وإيصال الماء وتخزينه وتوزيعه للشرب والسقي، ويدخل فيه إنشاء الحدائق والمحميات، وتشجير الشوارع والساحات، وقد تنافس المسلمون عبر العصور في حفر الآبار ومد السواقي، وحثهم الإسلام على ذلك وتطورت هذه الخدمات في العصر الحاضر، فانفتحت آفاق جديدة للقيام بهذه الصدقة الجارية، فيمكن اليوم حفر الآبار وبناء صهاريج التخزين ومد القنوات إلى المداشر والقرى وتزويد المنازل بالماء وإنشاء المزارع وتشجير الغابات والعناية بالموجود منها وغير ذلك.

توفير المقابر لدفن أموات المسلمين

فإذا كانت المقبرة أرضا مملوكة لصاحبها فأوقفها على دفن أموات المسلمين، فهي له صدقة جارية لأن السنة أن يدفن المسلم إلى جنب إخوانه من المسلمين، وتقوم هذه المقابر بهذا الدور كما أنها مكان لموعظة الأحياء يزورونها ويعتبرون بما يرون فيها ويذكرون الله تعالى فيها ، فهي مدارس للتربية وفيها يتذكر الأحياء ما جرى للأموات ... فهي ليست للدفن فحسب، لذلك كانت صدقة جارية لمن أوقف أرضها وتوجد في بلادنا مقابر عمرها مئات السنين، ولا زالت تستقبل أمواتا جددا فكم هو أجر أصحابها عند الله تعالى؟

نسخ المصاحف وطباعتها وتوزيعها وترجمتها:

وقد تكفل الله تعالى بحفظ كتابه، وسخر لذلك ألوفا من عباده حفظوه في الصدور أو نسخوه في المصاحف، ليكون متواترا في نقله رواية وكتابة، وانتفع الناس بهذه المصاحف في المساجد والبيوت، وتفنن الخطاطون قديما في نسخ المصاحف وتوفيرها للناس، ثم ظهرت الطباعة فطبع كتاب الله تعالى وتطورت وسائل الطباعة والتوزيع فانتفع الناس بذلك

في تعميم كتاب الله تعالى على أقطار المعمور ثم أنشئت المراكز والمجمعات لطباعة المصحف الشريف، ووضعت الشروط العلمية لتداول أي طبعة صيانة لكتاب الله تعالى عن الأخطاء، ومع ذلك فقد بقي لآحاد المسلمين أن يسهم في التوزيع والتمويل فهو له صدقة جارية ...

تلك أمثلة ثمانية للصدقة الجارية ذكرناها ليتبين أن الحديث الذي نشرحه قد ذكر أجناس الأعمال التي تلحق المسلم بعد موته، وأن تحت كل نوع من الأنواع الثلاثة أمثلة كثيرة جدا.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الصدقة الجارية قد تكون هي المشروع نفسه، وقد تكون وقفا للإنفاق عليه، وقد فتح هذا بابا واسعا للمشاركة فمن لم يؤسس المشروع شارك في تمويله، وأحيانا يجمع المحسن بين الأمرين فيبني مسجدا مثلا، ويجعل له أوقافا لتمويل مصاريفه وقد يأتي غيره فيقوم بذلك.

كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن هذه الصدقات الجارية لم تجتمع في مجال واحد من مجالات العمل الإسلامي بل توزعت على كل ميادينه، فيجد المشتغل بالعمل السياسي، مثلا فرصا كثيرة من خلال مجاله، وعلى سبيل المثال فإن مجاله قد يخول له إصدار قرارات تخرج هذه الصدقات

الجارية إلى الوجود أو ترفع عنها المنع أو تيسر إ نجازها أو تحميها بعد قيامها حتى لا تصادر ... ورب قرار واحد كان سببا في إنجاز آلاف الصدقات الجارية، أو أعطاها الحماية القانونية حتى تستمر و يتم إنجاز مثيلاتها.

وما قلناه عن المجال السياسي، نقوله عن المجال الإعلامي والدعوي والتربوي والاقتصادي والاجتماعي والنقابي فلا ينبغي ربط الصدقة الجارية بالمجال الاجتماعي والخيري فحسب، بل كل مجال من مجالات العمل الإسلامي يفتح للعاملين فيه آفاقا واسعة للصدقة الجارية.

وقد يدعى المسلم للمساهمة في أكثر من صدقة جارية واحدة فإن استطاع أن يساهم فيها جميعا فهو أعظم لأجره، وإن لم يستطع فليختر منها ما كان أعظم نفعا وأشد حاجة وأقل وجودا.

وعلى المسلم ألا ينتظر الصدقة الجارية أن تقف على باب بيته، بل عليه أن يسعى إليها ويبحث عنها، وأما التي تأتيه فعليه أن يفتح لها الباب بلا تردد لأنه إذا تأخر في ذلك ذهبت إلى غيره.

إن الصدقة الجارية مجال للإبداع والابتكار، وقد تفنن المسلمون في ماضيهم بما بهر المؤرخين والمتتبعين وتنوعت أوقافهم وأحباسهم، مثلما تنوعت مصارف هذه الأوقاف

والجهات التي تنفق فيها، وبالتأكيد فإنهم لم يستنفذوا جميع أشكال الصدقة الجارية وبإمكان اللاحقين أن يبدعوا ويبتكروا ويأتوا بما لم يسبقوا إليه ما دام الوصف المشترك لذلك كله هو استمرار المنفعة وتجددها وبقاؤها بعد موت المتصدق.

ولابد ونحن نتحدث عن الصدقة الجارية التي ينتفع بها صاحبها بعد موته أن ننبه بأن شرط الانتفاع هو إخلاص النية لله تعالى، وموافقة الشرع والسنة، فأما إخلاص النية فإن الله تعالى لا يقبل صدقة أراد بها صاحبها الشهرة والرياء والدخول إلى التاريخ أو أراد بها تجميل صورته عند الناس وأما موافقة الشرع فلا بد أن تقع الصدقة الجارية في محلها فليس للمسلم أن يحبس على كنيسة، أو يمول أعمالا مبتدعة تنشر الشرك أو البدعة أو المعصية مما يدخل في الوقف الممنوع.

العمل الثاني : العلم المنتفع به

وهذا هو النوع الثاني من العمل الذي يصل إلى صاحبه بعد موته، والعلم النافع هو كل علم يحصل للناس به نفع في معاشهم، أو معادهم، فكل علم يعين الإنسان على عمارة الأرض و الخلافة فيها هو علم نافع فيما أنشئ له ويشمل ذلك العلوم الإسلامية والعلوم الطبيعية والإنسانية .

بعبارة أخرى فإن كل علم ينفع في حفظ الدين أو النفس أو العقل أو العرض أو المال فهو علم نافع وهو علم شرعي مأذون في تعلمه وقد يكون فرض عين وقد يكون فرض كفاية.

قال الله عز وجل: «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس» (سورة الحديد الآية 25)

وهذه المنافع لا تعرف إلا بعلوم مختصة يدخل بعضها في الصناعة وأخرى في التجارة وأخرى في الطاقة، لأن هذا الحديد يستخرج ويذاب وتصنع منه الآلات والأدوات.. ويستخدم في « المجالات المدنية والعسكرية استخدامات متنوعة كلها قائمة على العلم بخصائصه ومنافعه.

وقال سبحانه وتعالى:

« إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ

فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ..» (سورة البقرة الآية 164)

وجريان الفلك بما ينفع الناس يحصل بعلوم كثيرة يدخل فيها علوم البحار وعلوم الصناعة وعلوم التجارة والجغرافيا والمناخ وغيرها.

وقال عز وجل «والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون» (سورة النحل الآية 5)

وهذه المنافع التي في الأنعام تستخرج بعلوم الفلاحة والزراعة وتربية المواشي وعلم الكيمياء وعلم الأحياء وغيرها.

وهكذا نجد في كل ما خلق الله تعالى في هذه الأرض منافع لا يتوصل إليها إلا بعلوم مختصة فتكون هذه العلوم نافعة في تسخير هذه المخلوقات، والانتفاع بها.

العلم المنتفع به – كما ورد في هذا الحديث موضوع الشرح – واسع جدا. وبه انفتحت آفاق واسعة للمسلمين لتكون لهم آثار تبقى بعد موتهم ويصلهم ثوابها وهم في قبورهم.

إن علوم الدين وعلوم الطبيعة وعلوم الحياة وعلوم الإنسان وتطبيقاتها في الصناعة والطب والصيدلة والفلاحة والعمران أروقة واسعة يمكن للمسلمين أن يسهموا في ملئها بالعلم النافع.

وكما لا يحسن حصر الصدقة الجارية في بناء المساجد، لا يحسن حصر العلم المنتفع به في علوم الدين المعروفة، فقد تكون المساهمة في علوم الكتاب والسنة أو في علوم اللغة والبلاغة والأدب أو في علم التاريخ والجغرافيا أو في علم الطبيعة أو في علم الإحياء ...

وقد تكون المساهمة في شكل ابتكار واختراع، أو في شكل شرح وتهذيب، أو في شكل اختصار وتلخيص أو تجديد وتطوير أو ضبط وتنظيم أو تبسيط وتيسير أو تصفية وتطهير أو غير ذلك

وأسعد الناس بهذا، هم الذين اختاروا التعليم مهنة لهم وسعوا لإفادة الناس بما عندهم من العلم، وقد ذهب عدد من العلماء إلى أن أفضل مهنة هي التعليم، فإن جميع المهن الأخرى مدينة له بدءا بتعلم القراءة والكتابة وصولا إلى تعلم هذه المهن واتقانها.

والعلم النافع يبقى بعد صاحبه ويصله ثوابه في حياته وبعد مماته من طريقين:

الأول إذا بثه في صدور الناس، والثاني إذا دونه في الكتب فالعلم ينتقل عبر الأجيال بالرواية والكتابة، وقد يميل البعض إلى إعداد التلاميذ الذين يحملون علمه من بعده، وقد يميل آخرون إلى تأليف الكتب، وقد يميل فريق ثالث إلى الجمع

بينهما فيكون له كتب وتلاميذ، وقد قال الفقيه عبد الرحمان بن الجوزي إن الكتاب هو ولدك المخلد، وقال الأستاذ الداعية حسن البنا، وقد سئل لماذا لا يؤلف الكتب فقال: إني أؤلف الرجال الذين يؤلفون الكتب.

إلا أن فضل العلم النافع لا يمكن أن يقتصر على الذين اتخذوا. التعليم مهنة لهم في الحياة، فقد كان كثير من أصحاب المهن الأخرى ينافسون على تعليم العلم ويبذلونه لمن يطلبه منهم.

وسواء كان المرء من أهل هذه المهنة أو كان متطوعا بها، فإنه إذا علّم الناس علما نافعا فإنه يرجوا أن يكون من أهل هذا الحديث، فإذا كان يأخذ على تعليمه أجرا فهو في مقام، وإذا لم يأخذ عليه شيئا في الدنيا كان في مقام أعلى.

وإن مما تتميز به الحركة الإسلامية المعاصرة أنها لا زالت ترفع أبناءها إلى هذا المقام الأعلى، وتجعل مجالسها التربوية وأيامها الدراسية ودوراتها التكوينية ودروسها التعليمية لوجه الله تعالى في الوقت الذي صارت فيه كثير من هذه الأنشطة بالأداء.

إن قول النبي صلى الله عليه وسلم « أو علم ينتفع به « يفيد أن الآجر الذي يلحق صاحب هذا العمل في حياته وبعد مماته مشروط بأن يكون علما نافعا أولا، وأن يقصد الذي

يعلمه للناس أن ينتفعوا به ثانيا، وأن يبتغي بعمله ما عند الله تعالى في الآخرة، ثالثا ولو أخذ أجرا في الدنيا، أما إذا كان كل مراده هو الدنيا فقد ضاع ثوابه، وهذه عقبة خطيرة لابد أن يجتازها بسلام.

فقد روى أحمد ومسلم النسائي مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرّفه نعمته فعرفها قال: فماذا عملت فيها قال تعلمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمته فقال: فماذا عملت فيها، قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها قال كذبت ولكنك فعلته ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار، فليحذر العالم وكل من يتصدى لتعليم العلم النافع من حب الشهرة والحرص على أن ينسب إليه علمه،

قال الإمام الشافعي وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم ولم ينسب إلي منه شيء.

إن المرء قد يفتن بما له كما يفتن بعلمه ولا يسلم من الفتنه إلا إذا قصد بانفاق المال وانفاق العلم وجه الله تعالى وحده، فإذا كان العلم نافعا وكان مراده من تعليمه أن ينفع الناس وكان قصده من ذلك ما عند الله – أخذ الأجرة أو لم يأخذها فعليه أن يرقى في درجات الاخلاص والصدق ما امكنه لأن الله تعالى سيلقي القبول على كلامه، وسيكتب لمؤلفاته الذيوع والانتشار ويزداد نصيبه من الأجر، والتاريخ يشهد أن بعض العلماء يكتب الله تعالى لكتبهم القبول لدى الناس وينفع الله تعالى بها ما لا ينفع بغيرها، وسر ذلك الصدق والإخلاص الذي كان في قلوبهم عندما كانوا يحررون تلك الكتب بهذا المعنى كان أهل العلم ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل، وإن العلماء لم يورثوا درهما ولا دينارا وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

الأنبياء هم المعلمون حقا يبعثهم الله تعالى بالعلم الذي ينفع الناس، والعلماء يأخذون هذا من بعدهم ويبلغونه فيجمعون بين تعلم العلم والعمل به، وتعليمه فيكون أحدهم كالأرض الطيبة تمسك الماء وتنبت الكلأ و العشب الكثير.

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ بالله من علم لا ينفع، ومن صور العلم الذي لا ينفع أن يكون العلم نافعا في نفسه، لكنه في حق من لا يعمل به لا ينفع، فيكون هذا الشخص هو المسؤول عن عدم الانتفاع بعلمه، ومن صور العلم الذي لا ينفع أن يكون العلم نفسه لا ينفع، ويكون مضيعة للوقت وغيره أنفع منه وأفيد، وكما ليس شرطا أن تكون غنيا لتتصدق بالمال، كذلك، ليس شرطا أن تكون عالما لتتصدق بالعلم، فقد تكون داعما مساندا لمشاريع العلماء ومعينا لهم على نشر العلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالا، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها» (روا ه مسلم)، والحسد هنا هو الغبطة التي يتمنى فيها المسلم مثل ما عند أخيه غير أن التمني إذا لم يكن مقرونا بالعمل لا يفيد شيئا لذلك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»(روا ه البخاري).

العمل الثالث : الولد الصالح

وهذا هو النوع الثالث من العمل الذي يصل إلى صاحبه بعد موته، وقد اشترط النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون هذا الولد صالحا لينتفع به أبواه بعد موتهما، فما هو هذا الوصف؟

إن الصلاح هو صبغة تصطبغ بها جميع أعمال الإنسان، وتغلب على معظم تصرفاته، فيشتق له منها وصف فيقال: صالح، فالولد الصالح هو الذي يعمل الصالحات حتى غلبت عليه فصارت وصفا له فقيل صالح ابن صالح.

ومبدأ صلاح الإنسان من قلبه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «... ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » وصلاح القلب بالإيمان فإن القلب إذا اهتدى وآمن أمر صاحبه بأخلاق المومنين ونهاه عن أخلاق الكافرين والمنافقين.

وهذا الصلاح لا يورث كما تورث الصفات الجسمية لأنها صفات علمية وأخلاقية لا سبيل إلى توريثها إلا عن طريق التعليم والتدريب، وهو المجهود الذي على الوالدين بذله للانتفاع بصلاح أبنائهما بعد الموت.

إن المولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه.

أما الإسلام فهو الفطرة نفسها، وتنشئة الابن عليه هو عمل إرادي من الأبوين بجنيان ثماره فيما بعد.

ومرتبة الصلاح درجات كثيرة، فالصالحون بعضهم أفضل من بعض، فقد يكون الأبناء في صلاحهم أفضل من الآباء، وقد يكونون مثلهم وقد يكونون أقل منهم، والأجر بحسب المرتبة التي بلغها هؤلاء الأبناء في صلاحهم.

إن عمل الوالدين في تنشئة الأبناء على الصلاح أصعب من بناء المصانع والعمارات، وإن مشروعهم يستغرق سنوات هي مدة الطفولة التي تمتد بين الميلاد والرشد.

وإذا كان العدل الإلهي يقضي ألا يورث الآباء أبناءهم صفاتهم المكتسبة وأن يكون التوريث من خلال مجهود تربوي طويل، فإن صلاح الأبناء مشروع له أطراف ثلاثة هي الأم والأب والابن.

فأما الأم فلأنها تحمله وتضعه وترضعه وتربيه قبل أي شخص آخر.

وأما الأب فلأنه شريكها في هذه الرعاية وهو القائم على الأسرة، ويتكامل دوره مع دور الأم، ويتعاونان.

وأما الابن فلأنه المستهدف بهذا المشروع، وهو المعني بهذه التربية وهو ليس قطعة من خشب أو صفيحة من معدن يشكلها النجار والحداد كيف يشاء، ولكنه كائن حي في نمو مستمر، يتمتع بالعقل والإرادة، ويستجيب لمواقف الحياة بطريقته الخاصة، فلابد أن يعين على نفسه ولابد أن يكون عند ظن أبويه، بل فوق ما يظنان به، ولذلك أول الصلاح أن يكون بارا بوالديه وأن يعرف لهما حقهما، وهذا من أول الدروس التي يلقنها الوالدان لأبنائهما «وقضى ربك ألا تعبد إلا إياه تعبدوا وبالوالدين إحسانا».

لقد جعل الإسلام من مقاصد الزواج الكبرى ابتغاء الولد الصالح، وعلى الزوجين الاستعداد لاستقبال هؤلاء الأولاد والتعاون على تربيتهم فإنهم سيحملون اسمهما وينسبون إليهما ويرثونهما ويكونون عقبا من بعدهما.

إن الإنجاب ليس مقصودا لذاته، ولذلك أمر الإسلام الرجل أن يختار الزوجة الصالحة حتى تعينه على صلاح أبنائه.

وإن ابتغاء الولد الصالح هو النية المشتركة بين الأب والأم، فإذا اتفق الهدف فلابد بعد ذلك من الاتفاق على الوسيلة المحققة له.

ويحتاج الأبوان إلى التشاور المستمر في مجموعة من الموضوعات التي لها صلة بتربية الأبناء، مثل الصلاة والصيام

والدراسة والقرآن والنظافة والأصدقاء والتلفاز والأنترنيت والرياضة والمسجد وغيرها.

فإذا نجح الأبوان في تخريج أولاد صالحين فإنهما ينتفعان بصلاحهم ودعائهم لأن الحديث قال: «... أو ولد صالح يدعو له»

فأما انتفاعهما بصلاحهم، فالولد من كسب أبيه كما جاء في الحديث، وكل ما يعمله الابن من أعمال البر والخير فهو لأبويه، فإذا كان طفلا لم يبلغ بعد، فإن كل عمل صالح يعمله يكتب لأبويه، وإذا بلغ وصار مكلفا يكتب لأبويه مثله.

وهذا عمل آخر يضيفه الأبوان إلى عملهما، فإذا كان لهما أولاد كثر فهي أعمار أضيفت إليهما، وهذا عدا الأعمال التي يعملها الأبناء ويهبون ثوابها للوالدين بعد مماتهما مثل الصدقة والحج والعمرة والتلاوة والدعاء وغيرها.

لقد قدم الحديث صلاح الولد على دعائه حتى نعلم أن الوالدين ينتفعان بصلاح أبنائهما ثم دعائهم، والدعاء من الرجل الصالح غير الدعاء من غيره، فإن للإجابة شروطا منها صلاح الداعي واستقامته، وإذا كان المسلمون يطلبون الدعاء من صالحيهم، فإن الأبوين إذا كان لهما ابن صالح فدعا لهما فإنهما ينتفعان بصلاحه ودعائه معا.

وقد ذكر العلماء أن من المكفرات التي يكفر الله بها ذنوب العبد، دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب حيا كان أو ميتا، وقد يكون ذلك الدعاء سببا في نجاته من النار، قال الله تعالى: «والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم». (سورة الحشر الآية 10)

وإذا كان الميت لا ينفع الحي بالدعاء لأنه مات، فإن الحي ينفع الميت بالدعاء له، وأولى الناس بالدعاء الوالدان فإنهما السبب في وجود الابن الداعي، والسبب في صلاحه ودعائه قال تعالى: «وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ...» الإسراء 24.

إن أفضل ما يدعو به الابن هو الرحمة والمغفرة كما في هذه الآية الكريمة: وقد دعا نوح وإبراهيم بذلك فقال نوح عليه السلام، «رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مومنا وللمومنين والمومنات ..» (سورة نوح الآية 28).

وقال إبراهيم عليه السلام: «رب اغفر لي ولوالدي وللمومنين يوم يقوم الحساب»(سورة ابراهيم الآية 41).

لقد أوجب الإسلام للوالدين حقوقا في حياتهما تدور حول البر بهما والإحسان إليهما وطاعتهما، وأوجب لهما حقوقا بعد مماتهما ومنها الدعاء لهما، وزيارة قبريهما وصلة

رحمهما وإنفاذ وصيتهما، وإكرام صديقهما مما يقترن بشكل أو بآخر بالدعاء.

وليس لهذا الدعاء الخاص بالوالدين وقت، وليس له مدة فقد يدعو لوالديه في كل يوم أو في كل أسبوع أو أكثر من ذلك.

وقد ذكر القرآن الكريم دعاء الولد للوالد، كما ذكر دعاء الوالد للولد ليعلم الولد أن دعاء والده أسبق، فالوالد يدعو كما علمه الله تعالى وأمره في قوله سبحانه: «رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه واصلح في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين». (سورة الأحقاف الآية 15)

وقد وصف الله سبحانه عباد الرحمن وختم وصفهم بقوله: « **وَالذِينَ يَقُولُون رَبنَا هَبْ لنَا مِنْ أَزواجِنَا وَذُرِياتِنَا قُرةَ أَعيُنٍ وَاجْعَلنا لِلْمتقِينَ إِمَاماً** (74) **أُولئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرفَةِ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقون فِيهَا تَحِيةً وَسَلاَماً** (75) **خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنت مُسْتقرا وَمُقَاماً**».

ولا يكتفي المسلم ببذل الجهد في إصلاح أبنائه والاستعانة على ذلك بالتضرع والدعاء بل يزيد إلى ذلك أمرا ثالثا هو الوصية، لأنه لا يدري ما يحدثون بعده.

ويظن البعض أن الوصية لا تكتب إلا إذا اقتضتها بعض الأمور المالية، وليس كذلك، فإن الأمور الدينية أهم منها، وكان السلف الصالح يجعلون وصاياهم شقين، فالشق الأول منها

تكون وصايا دينية، يوصيهم فيها بتقوى الله تعالى والاستقامة على دينه وغالبا ما تكون ديباجتها، أني أوصيكم بما أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب: «يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون وأصيكم بما أوصى الله تعالى به المومنين ... فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مومنين».

لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما حق امرئ مسلم يبيت ليلتين له شيء يوصي فيه إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه. (رواه مسلم).

وهل هناك شيء أهم من الدين الذي يدينون به بعد موت أبيهم، فقد جمع يعقوب أبناءه وقال لهم ما تعبدون من بعدي، وهذه وصية شفوية وهو حي حتى يفارقهم عليها. وهذه الوصية تكون بعد التربية والدعاء ، والله سبحانه أكرم الأكرمين لا يخيبه في ولده بل يجعله من الصالحين ويجمعه به في الجنة يوم القيامة، وعد الله لا يخلفِ الله وعده كما جاء في قوله عز وجل: جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿23﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿24﴾ سورة الرعد.

وإذا كان هذا الولد الصالح مشروعا لوالديه المسلمين فإن لهذا المشروع أعداء. وأعداء المشروع هم: إبليس وجنوده، فإن مشروعهم مناقض له، فهم يدعون الناس إلى النار، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة، بإذنه، وما يدخل الناس إلى النار هو الكفر والفسوق والعصيان.

هذا الشيطان اللعين ومن معه لا يروقهم أن يكون لك ولد صالح يدعو لك، ولذلك يتصدون لك من أول خطوة، فعندما يولد المولود ينخسه الشيطان، ثم يعود إليه عند البلوغ لينازع عليه أبويه، وليتخذه من أوليائه وحزبه الخاسرين، قال تعالى على لسان هذا اللعين: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿62﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿63﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿64﴾﴾ سورة الإسراء.

يتعرض الوالدان لمنازعة هذا العدو ومشاغبته ومناوشته ويجدون منه فتنة شديدة خاصة عندما يناهز الطفل البلوغ حيث تشتد المنازعة كل طرف يريد أن يستأثر بهذا الولد لصفه، ولعل هذا يفسر الحالة التي يمر بها الولد في أول بلوغه ورشده.

إن الشيطان يسعى ليفسد المشروع برمته، إما بإفساد الأبوين وفاقد الشيء لا يعطيه، وإما بهدم الأسرة ليذهب الحضن الذي يعين على تربية الأبناء، وإما بسلب الأسرة رسالتها فتصير هيكلا شكليا لا يفيد شيئا ...

فإذا نجح هذا العدو في إغواء بعض الأبناء واستدراجهم إلى الانحراف فالمعركة لم تنته بعد وعلى الأبوين ألا يستسلما ويضعا سلاحهما، فما دام الولد حيا وهما كذلك يصلح التذكير كما فعل سيدنا نوح مع ابنه فإنه استمر في دعوته حتى حال بينهما الموج فكان من المغرقين.

إن عقوق بعض الأبناء رغم صلاح آبائهم وأمهاتهم يدخل في الابتلاء الذي يبتلى به بعض الناس في أولادهم فليصبروا وليعملوا على رفع هذا البلاء فإن الإنسان يولد على الفطرة وهو مستعد للعودة إلى فطرته في جميع مراحل العمر.

خاتمة:

إن الحديث الذي بين أيدينا وإن اقتصر على ذكر ثلاثة أعمال، فإنها أجناس وأنواع لأعمال كثيرة جدا، ولذلك فما ورد من أحاديث، أخرى سمت أعمالا غير هذه الثلاثة فهي أمثلة لما ذكره هذا الحديث، وعند التتبع سنجد أن أي عمل ورد ذكره في أحاديث أخرى لا بد أن يندرج تحت واحد من هذه الثلاثة: الصدقة الجارية والعلم المنتفع به والولد الصالح الذي يدعو له

من هذه الأحاديث مثلا، قوله صلى الله عليه وسلم «سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته :من عَلّم علماً، أو أجرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً ، أو ورّث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته» حديث حسن رواه البزاز وحسنة الألباني في صحيح الجامع. فإن هذه السبع ترجع إلى الثلاث المذكورة في حديث مسلم.

وإن العلماء لم يورثوا درهما ولا دينارا وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذه بحظ وافر.

الأنبياء هم المعلمون حقا يبعثهم الله تعالى بالعلم الذي ينفع الناس، والعلماء يأخذون هذا العلم من بعدهم

ويبلغونه فيجمعون بين تعلم العلم والعمل به وتعليمه، فيكون أحدهم كالأرض الطيبة تمسك الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير، لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم إني أسألك علما نافعا» كما كان يتعوذ بالله من علم لا ينفع..

ومن صور العلم الذي لا ينفع أن يكون العلم نفسه لا ينفع ويكون مضيعة للوقت وغيره أنفع منه وأفيد.

وكما ليس شرطا أن تكون غنيا لتتصدق بالمال كذلك ليس شرطا أن تكون عالما لتتصدق بالعلم، فقد تكون داعما ومساندا لمشاريع العلماء ومعينا لهم على نشر العلم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله مالا، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل أتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها».

والحسد هنا هو الغبطة التي يتمنى فيها المسلم مثل ما عند أخيه غير أن التمني إذا لم يكن مقرونا بالعمل فهو لا يفيد شيئا.